دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

نشأة النخبة المثقفة بمنطقة الحماية الإسبانية وتصورها للإصلاح والنهضة ١٩١٣ – ١٩٣٦

د. عاهد ازحيمي
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
دكتوراه في التاريخ المعاصر
جامعة سيدي محمد بن عبد الله – المملكة المغربية

مُلَخّص

أدى استعمار المغرب سنة ١٩١٢م، وتقسيمه إلى منطقة دولية وثانية فرنسية وثالثة إسبانية، إلى نشأة النخبة المثقفة بشمال المغرب، التي كانت واعية بأهداف الحركة الإمبريالية، لذلك تنبهت منذ الوهلة الأولى إلى أن محاربة الاستعمار يجب أن تبدأ بمحاربة الأسباب التي قادت إليه، والتي تمثلت في نظرها في الجهل والتخلف الاقتصادي والاجتماعي، وهوما جعل هذه النخبة تقتنع أن المدخل الأساسي للإصلاح هو التعليم ونشر الوعي بين المغاربة، والسعي لتأسيس اقتصاد وطني قادر على منافسة الاقتصاد الأجنبي. هذا التصور الذي تبنته النخبة المثقفة للنهضة والإصلاح، ترجمته في العديد من المشاريع التي شيدتها بشمال المغرب، كان أبرزها هو تأسيس المدرسة الأهلية سنة ١٩٢٤، التي شكلت مهد الوطنية، حيث تخرج منها معظم قادة الحركة الوطنية بشمال المغرب، ومن تلاميذها تألفت البعثات التعلمية نحو المشرق. كما قامت هذه النخبة بقيادة الحاج عبد السلام بنونة بإنجاز مشاريع اقتصادية جريئة بالاعتماد على الاقتصاد التضامني كان أبرزها تأسيس معمل لإنتاج الكهرباء، ومعمل الثياب الوطنية ومعمل لصناعة الزرابي، وتأسيس مطبعة المهدية التي كان لها دور أسيس في الحركة الثقافية بشمال المغرب على عهد الاستعمار الإسباني.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١١	مارس	٢٠٢٥
تاريخ قبـول النشـر:	١٦	أبريل	٢٠٢٥

كلمات مفتاحية:

الحماية الإسبانية؛ النهضة الوطنية بشمال المغرب؛ المدرسة الأهلية الحاج عبد السلام بنونة؛ البعثات الطلابية نحو المشرق؛ تاريخ شمال المغرب المعاصر

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.367304.1212

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عاهد ازحيمي، "نشأة النخبة المثقفة بمنطقة الحماية الإسبانية وتصورها للإصلاح والنهضة ١٩١٣ – ١٩٣٦".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد الحادي والسبعون؛ سبتمبر ٢٠٢٥. ص ١٣١ – ١٤٢.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Corresponding author: ahidzhaymi89@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كَان التَّارِيخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

تعرض المغرب منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر للعديد من الضغوطات العسكرية والمالية والاقتصادية والدبلوماسية من الطرف الدول الامبريالية، التي انتهت بسقوطه في يد الاستعمار، وفرض نظام الحماية الفرنسية عليه بتاريخ ٣٠ ماس ١٩١٢م، وتقسيمه لمنطقة فرنسية وأخرى إسبانية وثالثة دولية، وهوما كان له بالغ الآثار على ذهنية المجتمع المغربي، الذي لم يتقبل خضوع بلاده للأجانب، ومن هنا تولدت مواقف عدة اتجاه هذا الاستعمار، فالذين كانوا يعيشون في المدن المنزوعة السلاح استسلموا للأمر الوقع، مكرهين، بينما أعلن سكان القبائل الريفية والجبلية المقاومة والجهاد ضد الاستعمار، ولم يستسلموا حتى آخر رمق من حياتهم أو بعد استنزاف كل طاقتهم ونفاذ عدتهم وعجزت أمام الآلة للعسكرية الحديثة والمتطورة للمستعمر.

وإلى جانب هؤلاء كانت هناك فئة أخرى قليلة العدد، ذات إطلاع ومعرفة بالوضع الدولي العام وما يعرفه العالم المعاصر من تغيرات حضارية وتطورات سياسية، فلم تتفاجأ بهذا الاستعمار لكونها كانت جد مقتنعة بأن المغرب كان متأخرًا وضعيفًا على جميع المستويات والأصعدة، لهذا أخذت هذه الفئة تفكر في مصير مجتمعها، وصارت تبحث عن حلول عملية وأكثر واقعية للأزمة المغربية، حيث انطلقت من مساءلة نقدية للذات (أي المجتمع المغربي) والبحث أن أسباب الضعف والتأخر للدولة المغربية، وكذلك الوعي بالآخر (أي المستعمر الأوروبي)، وفهم أسباب قوته وتقدمه.

ومن خلال الدور الذي قامت به هذه الفئة، أطلقنا عليها في هذه الدراسة لقب النخبة المثقفة، لأنه من بين تعاريف المثقف نجد: "هو ذلك الإنسان الذي يتجاوز دائرة ذاته، ليصل إلى المجتمع الأكبر كله، هو الإنسان القادر على أن يجعل مشاكل الآخرين هموم شخصية له وهو ضمير عصره "حسب د. جمال حمدان. وكذلك تميزت هذه النخبة بكونها لم تكتف فقط بالتوعية والإرشاد، بل أخذت على عاتقها مسؤولية تنزيل أفكارها على أرض الوقع، لأنه حسب عبد الوهاب المسيري: فإن "المثقف الذي لا يترجم فكره إلى فعل، لا يستحق لقب المثقف".

أما محمد داود فقد عرف النخبة المثقفة التي سماها بالمفكرين: "هم قليل في كل أمة جردوا نفوسهم من القيود التي كانت ترزح تحت أثقالها، ومحوا من قاموس حياتهم كل ما يدل على الجبن والتواني وضحوا بشيء من مصلحتهم الخصوصية إزاء مصالح وطنهم فتقدموا للميدان الاجتماعي... باحثين عن أنجع الأدوية لإيقاف مفعول تلك الأوبئة التي تسير بصاحبها نحو المهالك والاضمحلال نهضوا ورائدهم إصلاح حال أممهم وشعوبهم"[١]

إذن فما هي ظروف نشأة هذه النخبة المثقفة؟ وكيف واجهة صدمة الاستعمار؟ وما هو موقفها منه؟ وكيف تصورت الإصلاح والنهضة التي كانت تصبو إليه؟ وما هي أبرز مشاريعها الإصلاحية التي قامت بها؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات تم تقسيم هذه الدراسة إلى المحاور التالية:

ظروف نشأة النخبة المثقفة بشمال المغرب، وموقفها من الاستعمار. تصور النخبة المثقفة للإصلاح والنهضة الوطنية. مشاريع النخبة المثقفة وأبرز مبادراتها الوطنية.

أولاً: ظروف نشأة النخبة المثقفة بشمال المغرب، وموقفها من الاستعمار

قال التهامي الوزاني: "كان من صنع الله ولطفه الخفي بالمغرب، أن طور الحماية المفروضة على المغرب قارنه وجود رجال جعلوا همهم من هذه الحياة خدمة القضية المغربية، ونشر الفكرة الوطنية والاعتزاز بالمقومات الإنسانية الأخرى، حتى ولو فقدت حريتها واستقلالها"[٢]. لم يخالف التهامي الوزاني الصواب، ففي لحظة سقوط المغرب تحت نير الاستعمار، برزت للوجود نخبة مثقفة، أخذت على عاتقها مسؤولية النهوض بالبلاد وتطويره، تبدأ بإصلاح الفرد والمجتمع، وتنتهي بتحقيق الاستقلال الاقتصادي والسياسي للمغرب. وتحكم في نشأة وتكوين هذه النخبة المثقفة عاملين أساسيين اثنين هما: عامل الانتماء للأسر العينية، وعامل التكوين الثقافي الذي تلقاه. ففيما يخص عامل الانتماء، نجد أن معظم عناصر هذه النخبة نشأت

وترعرعت في كنف عائلات الأعيان وأبناء التجار والموظفين المخزنيين والسفراء، الذين واكبوا مراحل الهيمنة الأوروبية للدول الرأسمالية على المغرب، وتولد لديهم الاقتناع المبكر بضعف وانحطاط المجتمع المغربي مقارنة مع الحضارة الأوربية وقوتها العسكرية والسياسية[٣].

وتشبعت هذه الأسر العينية المتنورة بالأفكار التجديدية والإصلاحية، التي اكتسبوها من خلال رحلاتهم إلى المشرق لطلب العلم أو لأداء مناسك الحج. وكذلك بحكم مشاهدتهم للحضارة الغربية أثناء زيارتهم لبعض المدن الأوروبية لممارسة أنشطتهم التجارية أو كمبعوثين دبلوماسيين عن المخزن المغربي، ثم احتكاكهم بالأجانب ومجاورتهم لهم بحكم وظائفهم المخزنية في المدن الساحلية المغربية وخاصة مدينة طنجة[٤]، فكان لثرائها الفكري وتنورها منبعا فكريا لوريثتها النخبة المثقفة[٥]، مما جعل هذه الأخيرة تنشأ متحررة من كل الأفكار الخرافية والعادات الخاطئة التي كانت متفشية في المجتمع المغربي أنداك.

أما العامل الثاني الذي تحكم في نشأة النخبة المثقفة بشمال المغرب، هو عامل التكوين الثقافي، حيث كانت هذه الأسر العينية المتنورة واعية ومقتنعة منذ وقت مبكر بأهمية التعليم العصري، الشيء الذي دفعها لحث أبنائها وحفدتها وتشجيعهم على متابعة دراستهم بالقرويين والمشرق، بل الأكثر من ذلك هناك من ألحق أبناءه بمدارس الرابطة الإسرائيلية ومدارس أبناء الجاليات الأجنبية[٦]، لعدم تواجد مدارس مغربية عصرية أنداك. هذا في الوقت الذي كان في أغلب المغاربة يعارضون التعليم العصري ويعتبرونه "بدعة محدثة"، فعلى سبيل الذكر لا الحصر نجد أحد فقهاء ذلك العصر وهو محمد ن الصديق الغماري يقول: "ما ضل العالم وانتشرت الأخلاق الفاسدة ومعتقدات المبتدعة والمتفرنجة فيه إلا بواسطة الجرائد، فهي والمدارس الإفرنجية العامل الوحيد في إفساد المسلمين"[٧].

كان هذا الرأي في الغالب هو موقف معظم المغاربة عامة وخاصة. باستثناء الأسر العينية المتنورة التي وفرت الظروف المادية والمعنوية لتعليم أبنائها وهوما نتج عنه قيام حركة أدبية مزدهرة بتطوان، تمثلت في إقبال العديد من التلاميذ والشباب على دروس الفقهاء والعلماء الذين كانوا يقومون بإلقائها بمساجد وزوايا مدينة تطوان، وكذلك سفر بعضهم إلى فاس والمشرق لطلب العلم وأخذ المعرفة من منابعها[٨].

وأشار محمد داود لهذه الحركة الأدبية والتعليمية المزدهرة التي عاشتها مدينة تطوان في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بقوله: "وإن الذي نذكره عن ذلك العهد، أن تطوان كانت فيها بواكير نهضة علمية وأدبية، كنا نحن ومن في طبقتنا من تلاميذها الأولين، إذ وقع من جماعة من شباب تطوان إقبال على الدروس العلمية الوحيدة بتطوان في ذلك التاريخ، وهي دروس الجامع الكبير وما حكمه من المساجد والزوايا بهذه المدينة، ودروس جامعنا الكبير لَمَنْ لا يعرفها، نسخة طبق الأصل من درس جامع القرويين بفاس، في علومه وبرامجه وطريقته وشيوخه وتلاميذه، لأن مدرسي تطوان وعلماءها كلهم أوجلهم درسوا بالقرويين"[٩].

وإلى جانب هذا الإقبال الكبير على الدراسة، برز في تلك الظرفية عامل آخر ساهم بشكل واضح في توعية العديد من المغاربة وخاصة أبناء الأسر المتنورة والمتفتحة، هو ظهور الجرائد العربية، التي كانت قد بدأت تصل إلى المغرب من المشرق وتونس والجزائر مثل: "العروى الوثقى" أو "الهلال" وكذلك "المقتطف" و"المنار"[١٠]، أو الجرائد التي أخذت تصدر في مطلع القرن العشرين بمدينة طنجة وبعض المدن المغربية الأخرى، وكانت هذه الجرائد تتداول أخر الأخبار العالمية، وتنقل أحدث المستجدات والاختراعات العلمية والتقنية، وتتبع تطورات النهضة المشرقية[١١]، وصارت جل تلك الأخبار يتم تداولها بالأوساط والمجامع التي كانت منتشرة بمدينة تطوان بشكل كبير، وهوما زاد من وعي العديد من المغاربة بتأخر بلادهم أمام هذه المستحدثات، وحاجتها الملحة إلى التطور والتقدم عاجلا لا أجلا[١٢].

كما كانت هذه المجالس كذلك، بمثابة مدارس ومعاهد للتوعية والتثقيف بالنسبة للشباب والطلبة الذين كانوا يرتادون عليها، حيث تفتحت أذهانهم بفضلها، وذلك من خلال اطلاعهم على مجموعة من الأفكار والأحداث الجديدة، التي لم تكن في متناولهم من قبل. الشيء الذي كان له بالغ الأثر في تكوينهم المعرفي

وتوجههم العلمي والأدبي، وهوما أهلهم ليكونوا بعد فرض الحماية على المغرب من الرعيل الأول للنخبة المغربية المثقفة التي وضعت العديد من المشاريع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية كما وضعت جملة من الخطط العملية لتحقيق نهضة وطنية[١٣].

ومن أبرز عناصر هذه النخبة المثقفة بشمال المغربي انبعثت إلى الوجد مع فرض الحماية على المغرب نجد: الحاج عبد السلام بنونة الذي يعتبر رائد هذه النخبة وعرابها، والفقيه العلامة أحمد الرهوني، وعلي الخطيب والزبير السكيرج والحاج محمد العربي الخطيب ومصطفى أفيلال ومحمد بن عبد الكريم الخطابي، والعربي اللوه وعلي السلوي ومصطفى أفيلال[١٤].

وتحدث محمد عزيمان عن هذه النخبة المثقفة بقوله: "وأثناء العقد الأول من الحماية وأوائل العقد الثاني منها ... كانت في تطوان نخبة مستنيرة رغم قلة عدد أفرادها، كانت تتابع الأحوال وتفكر في مصير البلاد، وكانت تدرك أن الجهل والتأخر من أعظم الأسباب في وقوع البلاد تحت الحكم الأجنبي، ... وكان من أبرز أعضاء هذه النخبة المرحوم الحاج عبد السلام بنونة هذه الشخصية التي سبقت عصرها حقا، وكان من الوعي والاستنارة ووضوح الرؤيا على درجة جعلت منه رائدا من رواد النهضة لا في تطوان وحدها، بل في المغرب كله. وكان من أعضاء هذه النخبة الفقيه الرهوني (رحمه الله) فقد كان بعلمه الواسع وتفتح ذهنه وبعمله مدة طويلة مع النائب السلطاني بطنجة الحاج محمد الطريس على اطلاع على أحوال السياسة المغربية، عارفا بأسباب التأخر والضعف اللذين تعاني منهما البلاد، مدركا سبل الإصلاح الواجب سلوكها. وكان من أعضاء هذه النخبة أيضًا المرحوم السيد علال الخطيب فقد كان متصلا بحركة الإصلاح الديني التي كان يقودها جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا وكان على اتصال بصحف الشرق العربي وعلى اطلاع على بأحوال السياسية. (وكان كذلك) المرحوم السيد الزبير السكيرج وهومن أعضاء البعثة الحسنية التي وجهها السلطان مولاي الحسن الأول إلى إنجلترا حيث درس الهندسة وعاش في انجلترا مدة استطاع أن يقارن بين حالة التقدم في الميادين العلمية والسياسية والاجتماعية والعسكرية هناك وبين حالة الضعف والتأخر في بلادنا. و(هناك) الفقيه السيد الحاج محمد العربي الخطيب الذي تتلمذ على الشيخ رشيد رضا بمصر واتصل بحركة الإصلاح الديني وعاد إلى بلاده داعيًا إلى السلفية وإلى إصلاح أحوال المجتمع"[١٥].

وتعززت صفوف النخبة المثقفة بشمال المغرب في العشرينات بعناصر شابة جديدة كانت ما تزال تتابع دراستها بفاس أو تطوان وكذلك المشرق[١٦] مثل: محمد داود والتهامي الوزاني وامحمد ابن العربي بنونة، الذين ساهموا منذ وقت مبكر في "بث الوعي الوطني" بين المغاربة عن طريق الكتابة الصحفية بالجرائد المشرقية والجزائرية وجريدة "الإصلاح" التي بدأت تصدر بتطوان منذ سنة ١٩١٧م كما سيأتي ذركه[١٧].

وتميزت هذه النخبة المثقفة بكونها كانت أكثر واقعية وعقلانية في مواقفها وطريقة تعاملها مع الاستعمار، لوعيها واقتناعها بمدى صعوبة الدخول في مواجهة مفتوحة مع الإسبان في أي ميدان من الميادين، خاصة أنها كانت تعيش داخل المدن الواقعة تحت سيطرة الجيوش الأجنبية، وسيتأكد موقفها ذلك بالخصوص بعد اندحار المقاومة المسلحة أمام الجيوش الاستعمارية، رغم التضحيات الجسام التي بذلها سكان الريف والجبال في المقاومة المسلحة، نظرا للتفاوت في العدة والعتاد بين الطرفين وطول فترة الحرب الاستنزافية[١٨].

وهكذا أخذت هذه النخبة تتابع أحوال البلاد ومصيره، وصارت تفكر في الأسلوب المناسب والطريقة الأكثر فاعلية التي يجب اتباعها لإنقاذ المغرب والمغاربة من النكبة التي حلت بهم، فتنبهت منذ الوهلة الأولى أن الأمر يتطلب منهم العمل على إعداد جيل من الشباب واع بماضيه وتراثه، مسلح بسلاح العلم الحديث، قادر على تحمل العبء الوطني، ويستطيع أن ينهض بالبلاد ويأخذ بيدها لتسترد استقلالها وتسترجع مكانتها. ومن هنا احتلت مسألة التوعية والتعليم ومحاربة الجهل مركزًا محوريًا في فكر وتصور النخبة المثقفة بشمال المغرب[١٩].

هذا التصور أفصح عنه الحاج عبد السلام بنونة رائد هذه النخبة في رسالته التي جاء فيها: "الاستقلال والحرية شيء يؤخذ ولا يعطى، وأخذه بقوة السلاح مع الجهل لا يدوم ونتيجته الثورة المتتابعة القاضية على البلاد وأهلها، والوصول إلى الاستقلال التام بقوة القلم وكثرة المعارف يكاد يكون من قبيل المحال اللهم إذا ساعدت الظروف بأسباب خارجية. ومحصل هذا كله أن الأمة المغربية تتوقف على رجال ذوي مقدرة في المعارف بأنواعها ليكونوا قادة للشعب يسيرونه حسب إرادتهم لمصلحة الدين والوطن، ويجب إيجاد هؤلاء الرجال عاجلا ما دام بالقبائل الداخلية رمق من الحياة الحربية"[٢٠].

ثانيًا: تصور النخبة المثقفة بشمال المغرب للإصلاح والنهضة

كما سبقت الإشارة إلى أن هذه النخبة انطلقت في تصورها للإصلاح والنهضة من مساءلة الذات قبل الأخر، حيث انصب اهتمامها على البحث عن الأسباب والعلل التي قادت البلاد للسقوط في مهاوي الاستعمار، فتبين لها أن أكبر آفة تسلطت على المغرب والمغاربة وهدت كيانهم هي آفة الجهل والجمود وتفشي الفكر الخرافي، مما ساهم بشكل خطير في تعطيل العقل المغربي عن التفكير الحر وتبليد إدراكه، حتى صارح بعيدا كل البعد عن الإبداع والتطور والابتكار، وانحصر فقط حول الاهتمام بالموروث الثقافي وتقديسه والاتكال عليه دون تفحص أو تمحص ونقد أو بذل أبسط مجهود في أي عطاء فكري أو تجديد علمي.

وبناءً على ما سبق، شكل الجهل في خطاب النخبة المثقفة بشمال المغرب السبب الرئيسي في كل الأزمات والأمراض المجتمعية[٢١]، التي كان يعاني منها المجتمع المغربي، واعتبرته "رأس الفضائح، ومعدن القبائح ولا مصيبة أعظم منه"، حيث وصفه محمد العربي الخطيب بكونه "من المصائب التي تقضي على الإنسانية قضاء نافذا وتحكم عليها بالإعدام"، نظرًا لما للجهل من تأثيرات سلبية وأضرار خطيرة على الفرد والمجتمع لكونه "يطمس الحقائق، ويميت النفوس ويوهم العزائم ويرث الخمول ويفضي إلى الخراب والدمار"[٢٢]، نتيجة ضلال العامة والخاصة وانغلاقهم وتعصبهم لكل قديم وتشبثهم به، وتقديسهم لكل موروث حتى لوكان وثنيًا، مع رفضهم المطلق لأي اجتهاد يساير مستلزمات الحياة العامة التي تتغير وتتطور مع مرور الزمن[٢٣].

كما تبين لهذه النخبة المثقفة أن هذه الآفة ترتبت بالأساس عن غياب التعليم العصري بالمغرب، حيث لم يكن هذا الأخير يتوفر حتى حدود توقيع معاهدة الحماية سنة ١٩١٢م على أية مدرسة عصرية لا حكومية ولا وطنية، باستثناء بعض المدارس اليهودية ومدارس أبناء الجاليات الأجنبية بالمغرب، وهي مدارس كان من المستبعد أن يلتحق بها أبناء المغاربة. وبالتالي فالتعليم الوحيد الذي كان منتشرا بالمغرب هو التعليم التقليدي الذي كان يتم داخل الكتاتيب القرآنية أوما تسمى بالمسيد، التي صارت في تلك المرحلة تنعدم في أغلبها أبسط شروط التعلم الأساسية أو السلامة الصحية للمتعلمين، حيث وصفها تقريرا إسبانيا بأنها كانت عبارة: "كارثة: اكتظاظ في حجرات ضيقة وفوضى ولا نظافة ولا إضاءة ولا تهوية ولا ماء جاريًا ولا مراحيض ولا تجانس في السن ولا مراقبة صحية ولا أثاثًا مدرسيًا، وفوق كل ذلك العقاب البدني"[٢٤].

كما أن التعلم في هذه الكتاتب القرآنية كانت تنحصر فقط على حفظ القرآن مجردًا من أي فهم أو تدبر، هذا مع العلم أن هذا التعليم لم يكن إجباريا، وبالتالي كان عدد الملتحقين بهذه الكتاتيب ضعيف جدا، فعلى سبيل الذكر لا الحصر ورد في تقرير نشرته الجريدة الرسمية للمنطقة الخليفية بتاريخ ٢٥ أبريل ١٩١٣م عن حالة التعليم بالمنطقة، أن عدد التلاميذ الذين كانوا يدرسون بالكتاتيب القرآنية في مدينة تطوان إذ ذاك بحوالي ٦٢٧ تلميذا فقط، كانوا متفرقين على ٢٩ مكتبا قرآنيا، في حين كان مجموع الأطفال الذين هم في سن التمدرس بنفس المدينة يصل إلى حوالي ستة آلاف (٦٠٠٠) طفل. وهوما يعني أن نسبة الأطفال الذين كانوا يدرسون بالكتاتيب القرآنية لا تتجاوز نسبتهم ١٠ % من مجموع الأطفال بمدينة تطوان. والشيء نفسه بالنسبة لباقي مدن المنطقة الشمالية التي كانت خاضعة للحماية الإسبانية[٢٥]، أما مسألة تعليم البنات فلم يكن موضوع

مفكر فيه لدى غالبية المغاربة إذ ذاك، أو على الأكثر كان لا يزيد عن موضوع خلاف بين فئة قليلة من الفقهاء[٢٦].

وبالتالي فالنتيجة المباشرة لهذا الظروف التعليمية التي كان منتشرا بالمغرب هوتفشي الأمية والجهل بشكل مهول، داخل أوساط المجتمع المغربي، فساهم هذا الوضع في تنامي العديد من الأمراض المجتمعية الأخرى التي ترتبط به، مثل الخرافات والأساطير والأوهام والأفكار السلبية التي تزرع الخوف والخمول، وتجعل الإنسان سهل الانصياع وسريع التحكم فيه والكذب عليه من قبل المشعوذين والدجالين والسحرة والطرقيين وغيرهم من تجار الأزمات الذين لا يخلو منهم زمان ولا مكان[٢٧].

هذه الآفة التي كان عليها المغرب والمغاربة، زادت من حدة الأمور، وساهمت في انتشار العديد من البدع والخرافات والعادات والتقاليد السيئة[٢٨]، التي أسرت التفكير وقيدت العقلية المغربية، وانزلقت بالذات المغربية نحو الخمول والاتكال والخوف، وأفقدت الإنسان حريته في التفكير الحر والحق في الاختيار، ودفعه كل ذلك إلى تسليم نفسه لغيره الذي يصبح هو المتحكم في إرادته ورغباته، الشيء الذي أدى حسب تعبير محمد بن محمد الزواقي إلى: "انقياد البعض للبعض واتكال الواحد على الآخر ليستمد منه القوة والإعانة. ويستشيره في الأمور المجهولة والأسرار المستورة"[٢٩].

وهكذا ارتكز الخطاب التوعوي للنخبة المثقفة بمنطقة الحماية الاسبانية على الدعوة لتوحيد الكلمة وترصيص الصفوف ضد الجهل والخرافات والجمود والضلالات والتقاليد المنحطة، والانكباب على العمل، والاجتهاد، والتشبث بالعلم، والمعرفة. وفي هذا الصدد يقول أحد كتاب جريدة الإصلاح: "يا أيها الناس قوا أنفسكم وأهاليكم وأبناء وطنكم عاقبة الجهل الذميم. واعلموا أن حياتكم الأدبية بالعلم. فأقبلوا عليه بكلياتكم. وجاهدوا في سبيله بالأموال. استفيدوا من خير مدنية العالم أجمع. زودوا أبناء وطنكم بالعلوم كي يضمنوا مستقبل حياتهم ونأمن شر جهلهم. عضدوا نوابغكم. عظموا قدر علمائكم المصلحين، سيروا في سبيل الرقي، انبذوا الخرافات والأوهام. إياكم والاستسلام لليأس. فإن اليأس جمود. والجمود موت والموت محو من صحيفة الحياة الصحيحة. أنهضوا كل فئة استنارت بنور العلم لتبين لغيرها فوائدها. بالعلم يدرك المرء قيمة الحياة، معنى إرادة النفس ويهزم جيوش البدع به تتقهقر عصابات الضلالات، وأرباب الغوايات. اتركوا التقاليد المنحطة المضادة لناموس الارتقاء. وتشبثوا بكل جديد نافع تعلموا لتحاربوا الجهل واليأس. تخاصروا واتحدوا على صالح العام. اعلموا لتسودوا يا أبناء الوطن، وتساووا غيركم من الشعوب الراقية"[٣٠]

هذا الوعي بخطورة الجهل الذي كان يعشه المغرب، جعل النخبة المثقفة بشمال المغرب مقتنعة تمام الاقتناع أن المدخل الأساسي للإصلاح هو التربية والتعليم الصحيح، ونشر الوعي بين المغاربة وتثقيفهم وخاصة فئة الأطفال والشباب[٣١]، وذلك ما أكده رائد هذه النخبة الحاج عبد السلام بنونة بقوله: "التعليم هو أساس كل إصلاح" وأنه "عندما تنعدم المعرفة تنعدم معها جميع وسائل الإصلاح"[٣٢].

وبناءً على هذه القناعة قادت هذه النخبة حملة واسعة من أجل التوعية بأهمية التعليم العصري ودوره في تغذية العقول وتنميتها، حيث اعتبر محمد داود أن العلم هو السر الحقيقي في ارتقاء الأمم وانحطاطها، وأن التفريط في العلم هو الذي كان وراء تدهور العالم الإسلامي وسقوطه تحت رحمة الاستعمار، إذ يقول بصيغة التساؤل: "وهل ترقى شعب في العالم إلا بالعلم؟ وهل صير الموجودات قسمين: سيدا ومسودا إلا العلم؟ وهل كانت أمتنا الإسلامية سيدة الأمم إلا بالعلم؟ وهل تدهورت في مهاوي الهلاك فخسرت استقلالها وفقدت عزها ومجدها إلا لما فرطت في العلم؟ فعفوا يا من لا يزالون حتى الآن غافلين أو متغافلين"[٣٣].

ولاقتناع النخبة المثقفة أن مسألة تعليم أبناء المغاربة تتطلب جهودا كبيرا ومتضافرة من طرف مختلف مكونات المجتمع، خاصة وأنها كانت تعي جيدا أن مدارس الاستعمار لا تنشر من المعارف سوى ما يكرسها ثقافتها ويخدم وجودها الاستعماري، الشيء جعل هذه النخبة المثقفة توجه نداءات متعددة لكل شرائح المجتمع من أجل العمل على خدمة المصلحة العامة والمساهمة في إنشاء تعليم وطني عصري يرقى بأبناء المغاربة ويجعل منهم قادة الوطن وسواعده. وهكذا وجهت هذه النخبة

نداء إلى الآباء والأسر من أجل السهر والحرص على تعليم أبنائهم[٣٤]، وكذلك وجهت نداء إلى طبقة العلماء ونبهاء الوطن من أجل المشاركة في مشروع نشر التعليم قولا وعملا[٣٥]، كما دعت هذه النخبة الأغنياء والميسورين والمحسنين للتكفل بتعليم أبناء المغاربة والمساهمة في بناء المدارس ودعمها[٣٦].

ولاقتناع هذه النخبة بدور الشباب في مشروعها النهضوي وجهت إليهم العديد من الدعوات لتزرع فيهم روح العمل والإبداع، وتساعدهم على اكتشاف مواهبهم وقدراتهم ليتمكنوا من استعادة ثقتهم بأنفسهم، ويستغلون طاقتهم للدفاع عن وطنهم وأمتهم في المستقبل الذي سيكونون هم رجاله. ولذلك اعتبرت النخبة المثقفة بأن "شبيبة كل أمة هي الحجر الأول في أساس رقيها وتقدمها ... وهي (أيضا) عنوان الصلاح والفلاح والرقي والكمال"، لكن إذا كانت شبيبة نافعة متعلمة وراقية. أما إذا كانت جاهلة منحطة فحتما ستكون "عنوان الخراب والشقاق، والتأخر والانحطاط"[٣٧]، وتشكل خطورة على الأمة والوطن.

إن وعي النخبة المثقفة بالمكانة التي تحظى بها الشبيبة داخل كل أمة جعلها تخصص لها حيزا مهما من خطابها، لكونها، "كانت تؤمن بأنه إذا عجز جيلها عن مقاومة الاستعمار. فلا بد من إعداد جيل جديد واع بماضيه وبتراثه، مسلح بسلاح العلم الحديث يستطيع أن ينهض بالبلاد ويأخذ بيدها في عثراتها لتسترد استقلالها وتسترجع مكانتها"[٣٨]. وذلك ما عبر عنه الفقيه أحمد الرهوني الذي خاطب الشباب بقوله: "ليس أملنا في شيوخنا ولا في كهولنا لأنهم أشرفوا على ما قدموا، إنما الأمل كل الأمل في الشبان النجباء الذين نبذو الجلوس في كسور البيوت نبذو الانكماش في حجور الأمهات والجدات، نبذوا لذة النوم والراحة في أركان أوطانهم فطافوا البلاد وساحوا في أرض الله يبتغون فضلا من الله ورضوانا يبتغون العلم ليرقوا بلادهم ويخرجوها من ظلمات الجهل إلى نور العلم، فإليهم أوجه كلمتي"[٣٩].

وفي السياق نفسه حاول أحد كتاب جريدة الإصلاح (يحى ابن المغرب) أن يبرز قيمة الشبيبة داخل المجتمع، وأكد على أن الوطن متوقف في المستقبل على كفاءتها وعملها حتى يصير في مصاف الدول المتقدمة، إذ يقول: "أيها الشباب: أنتم عماد المستقبل أنتم رجال العمل غدا. أنتم قادة الأمة بعد غد.. سعادة الوطن العزيز أو شقاؤه بأيديكم، فاختاروا لوطنكم ولأمتكم ما يرفع ذكرها بين الأمم الراقية فأنتم المسؤولون —بل أنتم هم الزمان نفسه– ضرورة أن الزمان كله صور. وهو بالنسبة إليكم كالظل — إن خيرًا فخيرًا وإن شرًا فشرًا– وهو قلب إذا انقلبتم وعليه فلا يلام الزمان، وإنما الزمن أنتم ...يا شبان المغرب: إن الوطن في حاجة إليكم، بل إلى معارفكم —فأنتم قوامه وعماده– وإن هذه العصر عصر كفاءات وشهادات وإجازات"[٤٠]. لأن المغرب حسب تعبير الحاج عبد السلام بنونة كان متوقفا "على رجال ذوي مقدرة في المعارف بأنواعها ليكونوا قادة للشعب"[٤١].

ثالثًا: مشاريع النخبة المثقفة ومبادرتها الوطنية

باعتبار أن التعليم كان هو المدخل الأساسي للإصلاح بالنسبة للنخبة المثقفة، وأن السياسة التعليمية للإدارة الاستعمارية الإسبانية كانت غير واضحة، ولا تزيد عن تأليف اللجان ووضع التقارير[٤٢]، جعل هذه النخبة تفكر مليا في تأسيس منظمة ثقافية تظم أبرز الشخصيات العلمية بالمنطقة، لذلك سيقوم مجموعة من عناصر هذه النخبة وعلى رأسهم الحاج عبد السلام بنونة والفقيه أحمد الرهوني، باتصالات مكثفة مع علماء ووجهاء المنطقة الخليفية من أجل تحقيق هذه الغاية، فتم إقناع الإدارة للاستعمارية بتأسيس منظمة تحت اسم المجمع العلمي المغربي بتاريخ ٣٠ دجنبر ١٩١٦[٤٣]. الذي ضم معظم علماء وفقهاء ومثقفي تطوان مغاربة وإسبان، كما وضع له قانون أساسي خاص به، وتشكل مجلسه، وفرزت لجانه[٤٤].

ومن أبرز الأعمال الإصلاحية التي قام بها المجمع العلمي المغربي، تأسيس جريدة "الإصلاح"، التي صدر عددها الأول يوم ٢٩ يناير ١٩١٧، فكانت هذه التجربة أول محاولة لنشر التوعية والدعوة للنهوض بين المغاربة[٤٥]، كما قام هذا المجمع بتنظيم التعليم بمدرسة لوقش، وبناء مدرسة الصنائع التقليدية بتطوان، وتأسيس مدرسة لتعليم اللغة العربية والإسبانية

والرياضيات، وكذلك تأسيس مطبعة الإصلاح التي كانت الأولى من نوعها، والمشاركة في المهرجان الأدبي الذي كان ينظم بمدينة سبتة ... غير أن هذه المنظمة التي كانت خاضعة للمخزن المغربي وتحت إشراف الإدارة الاستعمارية لم تعمر طويلا، وسرعان ما توقفت أنشطتها التي بدأت بقوة كبيرة[٤٦].

إلا أن هذا التوقف لم يكن ليحبط عمل النخبة المثقفة بشمال المغرب، أو يعرقل مسعاها، بل لجأت للقيام بمبادرات وطنية خاصة بها، حيث سيقوم محمد بن عبد الكريم الخطابي مثلا بتأسيس مدرسة عصرية بأجدير بعد انتصاره في معركة أنوال[٤٧]. ووضع "برنامج عام" للتعليم، يتضمن ثلاث وعشرين (٢٣) مادة[٤٨]، فشكل هذا البرنامج مشروعًا منسجمًا ومتكاملاً، بحمولة معاصرة وآليات منهجية تربوية حديثة ترمي إلى تحقيق تعليم مدني عصري يراعي المصلحة العليا للإنسان المغربي على جميع المستويات، فضلا عن الهم التحريري من السيطرة الاستعمارية بمحاربة مخططاتها في مجال التربية والتعليم[٤٩].

كما بدأت شرارة التعليم الحر بمدينة تطوان منذ سنة ١٩٢٢م، عندما أقدم الوجيه السيد علي السلاوي على إنشاء قسم دراسي لتدريس صهره عبد الخالق الطريس رفقة بعض أترابه[٥٠]، وطلب من محمد العربي الخطيب تدريسهم، غير أن هذا الأخير سرعان ما توقف عن أداء تلك المهمة نظرا لالتزاماته المتعددة، وهوما فتح المجال أمام محمد داود الذي كان حديث العودة من الدراسة بمدينة فاس، لخوض تجربة التدريس، فحقق نجاحا باهرا وازداد عدد تلاميذه، الذين صار يدرسهم بمكتبته الخاصة في منزله[٥١]، وتحدث محمد داود عن هذه التجربة قائلا: "وقد شملنا في هذا العهد اطمئنان من جميع النواحي، فمحل الدراسة هو مكتبي الخاص ولا سلطة فيه لغيري، ... وحياتي كلها علمية بين دراسة ومطالعة، أولياء التلاميذ ليسوا من الأشخاص الذين يجهلون قدر العمل الجليل الذي نقوم به، والتلاميذ الأربعة كلهم نجباء مجتهدون، يتسابقون إلى الحضور قبل الوقت المعين، وإلى حفظ النصوص وفهم الدروس"[٥٢].

فكانت هذه المبادرة التي قام بها محمد داود هي الشرارة الأولى لتأسيس التعليم الحر بمدينة تطوان، حيث سيقوم بعض أباء أولئك التلاميذ وفي مقدمتهم الحاج عبد السلام بنونة ومصطفى أفيلال بالاتصال بمحمد داود ومفاتحته في موضوع تأسيس مدرسة عصرية، وذلك ما تم تحقيقه بعد لقاءات متعددة واجتماعات كثيرة ونداءات متواصلة، حيث تم تأسيس أول مدرسة حرة بتطوان بتاريخ يوم ٢٠ دجنبر ١٩٢٦[٥٣] وهي المدرسة الأهلية التي شكلت "منبع النهضة التي عرفها شمال المغرب"[٥٤]، حسب وصف أحمد بن جلون الذي يعد واحدا من تلاميذها. بفضل التكوين الوطني الذي تلقاه تلاميذها، حيث ارتبطت فيها قضية التربية والتعليم بالعمل الوطني[٥٥]، لكون النخبة المثقفة بشمال المغرب كانت ترى بأن التعليم هو أحسن سلاح ضد الوجود الأجنبي في المغرب[٥٦]، وهذا ما جعلهم لا يكتفون فقط بتلقين الدروس ومبادئ العلم لتلاميذهم، وإنما كانوا يلقنون لهم دروسا في القومية تحت غطاء تدريسهم مواد دراسية، كما عبر عن ذلك محمد داود بقوله: "لقد لقنت الوطنية إلى الذين أصبحوا فيما بعد قادة حزب الإصلاح الوطني، باستثناء امحمد بنونة والتهامي الوزاني"[٥٧]

وتحدث التهامي الوزاني عن هذا الدور الذي لعبته المدرسة الأهلية في تجديد العقل المغربي بقوله: "فالواقع أن المدرسة الأهلية. ومديرها العلمي هو داود أخذ يلقن تلاميذها أن عليهم أن يحيوا في عهدهم لا في عهد الماضين الذين لم تبق عادتهم من عجين يتكيف حسب الرغبة، بل صارت صخورا حمرية في صورة المدرسة والدكان والبيت، والجنائز والأعراس، فلم تبق فائدة للعقل الخلاق، فليس أمامه ما ينشئه ولا ما يدعيه، فكل شيء يقدم له أحجارا رخامية في شكل لباس، مع لبدة تحت اليد، ورأس مغطى بالقب، وكل شيء جامد لا يتحرك ولا يتحول، فعمد داود إلى هذه التماثيل ونسفها نسفا، وحرر العقل الفتي من قشور بالية، وجلب له بدل "الأزهري على الأجرومية"[٥٨] كتاب "الدروس النحوية"، وبدل مطالعات "ألف ليلية وليلة"، المجلات والصحف المليئة بالأحداث الجديدة. ولما لم يكن في وسع الأستاذ داود أن تكون هذه المواد الثقافية مواد دراسية، فإنه أنشأ

في المدرسة ناديا [٥٩] يجتمع فيه التلاميذ في أوقات الفراغ يطالعون ما هم في حاجة إلى مطالعته ليعرفوا ما يدور حولهم من الأحداث العالمية. وكان النادي مكتبة ثقافية أكثر مما كان ناديا للشطرنج وتقضية الوقت"[٦٠].

وعقب تخرج فوجها الأول من المدرسة الأهلية دشن الحاج عبد السلام بنونة عهد البعثات الطلابية إلى الشرق في إطار بعثة تجريبية على رأسها الطالبين ابنه الطيب بنونة وزميله في الدراسة محمد بن مصطفى أفيلال، اللذان التحقا بمدرسة النجاح بنابلس سنة ١٩٢٨م، فكانت هذه المبادرة أول محاولة لتكوين جيل جديد خارج المنظومة التعليمية الاستعمارية. هذا بالإضافة إلى إرسال بعثة أخرى في نفس السنة إلى مصر مكونة من الطلبين عبد الخالق الطريس ومحمد الطنجي. ثم توالت البعثات بعد ذلك نحو نابلس ومصر خلال السنوات الموالية، والتي بفضلها تم تكوين عشرات من الأطر المغربية في العديد من المجالات العلمية الحديثة كالميكانيك والصناعة والفلسفة ... [٦١].

كما واكبت النخبة المثقفة هؤلاء الطلبة وتتبعت مسارهم العلمي وكانت تحفزهم للاهتمام بالعلم والعلماء والقراءة، والثبات على دينهم الإسلامي والحفاظ على هويتهم وثقافتهم المغربية، مع تغذيتها بما ينفعهم من الثقافات الأخرى. فتمكنت بذلك من تخريج جيل من الشباب متعلم وواعي بقضية وطنه، وبالمسؤولية الملقاة على عاتقه من أجل تحرير مجتمعه من أغلال الجهل، والدفاع عن استقلال البلاد وتحريرها من براثين الاستعمار[٦٢].

ولم تنحصر مهمة هذه البعثات فقط في تلقي أعضائها العلوم العصرية، وإنما تجاوزت ذلك لتلعب دورًا أكبر، حسب الطيب بنونة، الذي قال: "إن مهمتنا في البعثة والبعثات التي توالت بعد ذلك، لم تكن مجرد التزود بالمعرفة العربية الإسلامية من منابعها فقط، بل كانت هناك مهمة ثانية سامية قمنا بها كسفراء لبلادنا ودعاة لأمتنا. وهذه المهمة ابتدأت أولا بالتعرف بالمغرب ... لقد كان إخواننا العرب يجهلون كل شيء عن المغرب، عن ماضيه وحاضره وجغرافيته وطبيعته وشعبه وأوضاعه السياسية"[٦٣].

ونظرًا لوعي النخبة المثقفة، بأن التحرر من المستعمر لا يتوقف فقط على الحصول على الاستقلال السياسي، فإن هذه النخبة كانت جد واعية بمكانة الاقتصاد، واقتناعها بأنه من المستحيل الحصول على استقلال كامل إلا إذا استطاع المغرب تحديث وتنمية اقتصاده الوطني عن طريق الاستغلال الذاتي لخيرات البلاد، وذلك ما عبر عنه محمد داود صراحة بقوله: "هيت بنا يا أبناء الوطن العزيز إلى العلوم والمعارف والاقتصاد، فهي أساس الإصلاح، هي روح الحياة، وهي سلاح الناهضين، والبحث فيها هو أول واجب على من يحمل القلم الحر من الباحثين" [٦٤].

وهذا الاقتناع هو الذي دفع النخبة المثقفة بشمال المغرب للتفكير منذ وقت مبكر في خلق بعض المشاريع الاقتصادية البديلة عن الاقتصاد الاستعماري، وباعتبار أن معظم الصناعات الحديثة كانت تعتمد على الطاقة الكهربائية، تنبه الحاج عبد السلام بنونة منذ وقت مبكرة إلى أهمية تأسيس معمل لتوليد هذه الطاقة، فسارع سنة ١٩٢٨م إلى إنشاء "شركة التعاون الصناعية الاسبانية المغربية" لتوليد الطاقة الكهربائية، التي وصل عدد المساهمين فيها حوالي ١٨٠٠ مشترك، من بين المغاربة المسلمين منهم واليهود، بالإضافة إلى بعض الاسبان، وبعد سنوات من العمل الجاد في تشيد معمل الكهرباء والسفر إلى العديد من الدول الأوربية لاستيراد الآلات والتجهيزات الضرورية، تم تدشين هذا المعمل بتاريخ ٩ أبريل ١٩٣٣، حيث سيبدأ في ربط الساكنة بالطاقة الكهربائية بعد انسحابهم من الاشتراك في الشركة الإسبانية، ولذلك يعتبر هذه المشروع الوطني من أهم وأعظم المشاريع النهضوية التي عرفها المغرب على عهد الحماية، حيث كان أول مشروع اقتحم التكنولوجية الحديثة وتحدى الاقتصاد الاستعماري الاسباني[٦٥].

كما تم تأسيس معمل أخر للشباب بالوطنية، الذي بدأ العمل في بنائه منذ سنة ١٩٢٩، وتم تدشينه في فاتح يناير ١٩٣١. والذي كان الغرض منه هو الآخر مقاومة الصناعة الأجنبية في هذا المجال، وتنمية الاقتصاد الوطني، هذا بالإضافة إلى تأسيس معمل لصناعة الزرابي بشفشاون، الذي تم تدشينه في ١٦ يوليوز

١٩٣٤، ووصل عدد العاملين فيه من نساء وفتيات حوالي ١٦٨ عاملة[٦٦].

وحتى تتفادى النخبة المثقفة التكاليف المرتفعة لاستيراد الصحف والكتب المشرقية، وكذلك لجعل البرامج والكتب الدراسية في متناول الآباء، وتوفير الأرضية الملائمة لتأسيس الجرائد الوطنية، بادر الحاج عبد السلام بنونة لتمويل "مطبعة المهدية" التي تم تأسيسها على شكل شركة مساهمة بتاريخ ٢١ نونبر ١٩٢٨، وأسندت رئاستها للفقيه محمد داود[٦٧]، الذي تولى مهامه كرئيس لمجلس إدارة المطبعة بكل مسؤولية وإخلاص في العمل والتسيير، لجعل هذه المطبعة تقوم بواجبها على أكمل وجه وبعث روح النهضة الفكرية والعلمية والأدبية في المغرب. وشكلت مطبعة المهدية صلة وصل بين النخبة المثقفة الهادفة إلى إيقاظ روح النهضة بين فئات الشعب المتعطشة إلى ما ينعشها من ثقافة وآراء، كما كانت بمثابة متنفس للنخبة المتنورة من مثقفي وأدباء كل من المنطقتين الخاضعتين للحماية بالمغرب، لطبع أبحاثهم وانتاجاتهم الوطنية، والعلمية والأدبية، مما جعل هذه المطبعة تحظى بشرف إصدار الكثير من الكتب النفيسة لكتاب وعلماء مغاربة كبار[٦٨].

وهكذا، لعبت مطبعة المهدية دورين أساسيين، أولهما يتجلى في فتحها المجال لإمكانية الاتصال بين رجال الفكر النهضة بشمال المغرب وعموم الشعب المغربي، أما الدور الثاني فتمثل في كونها كانت ذات فضل كبير في طبع أهم الكتب العربية والمجلات والصحف الوطنية، مثل: مجلة السلام وجريدة الحياة وجريدة الريف وجريدة الحرية ومجلة المغرب الجديد ومجلة الأنوار ومجلة الأنيس وجريدة الأمة، وكذا العديد من الكتب والنشرات التي كانت تصدرها الحركة الوطنية[٦٩].

كما لعبت مطبعة المهدية دورًا كبيرًا في نشر الوعي بالمغرب، حيث كان لها الفضل في طبع معظم الجرائد والمجلات الوطنية التي صدرت بشمال المغرب، وساهمت في تسهيل عملية طبع الكتب المدرسة، ومنشورات الحركة الوطنية، علاوة على طبع مؤلفات النخبة المثقفة وعلماء وفقهاء ذلك العصر، مما ساعد على تشجيع القراءة، وجعل الجريدة والكتاب في متناول الجميع. كما تم التخطيط لمشاريع أخرى لم يكتب لها النجاح مثل مشروع معمل السكر بمرتيل، الذي وضعه له بنونة خططه وتم تجريب، زراعة قصب السكر في حوض مرتين، غير أن الإسبان وضعوا أمام هذا المشروع العديد من العراقيل مما حال دون تحقيقه، ونفس المصير عرفه مشروع قطار سلكي معلق بين تطوان وجبل غورغيز الذي وضعت له التصاميم النهائية، وتم عرضه على اللجنة الرسمية للسياحة، واحتوى المشروع على بناء فندق من ١٨ غرفة ومطعم فوق جبل بوزيتون، غير أن هذا المشروع بقي حبرًا عل ورق فقط[٧٠].

خَاتِمَةٌ

وعلى سبيل الختم تجدر الإشارة إلى أن كل هذه المشاريع والخطط والمجهودات التي بذلتها النخبة المثقفة بشمال المغرب على عهد الحماية الاسبانية لم تذهب سدى، بل أتت أكلها وأعطت ثمارها، ببروز جيل جديد واع ومثقف، ومتسلح بالثقافة والعلم الحديث، ومتشبع بقيم الوطنية الصادقة، ومتطلع لمغرب جديد، ومتحمس لحمل مشعل الإصلاح ومتحفز لإتمام مشروع النهضة الوطنية التي زرعت النخبة المثقفة بذرتها الأولى. وذلك ما عبر عنه التهامي الوزاني بقوله: "إن بنونة صنع الإنسان لمساعدة الظروف، وكان يود أن لو احتفظ الشبان بما لا يضر من عوائدهم، ثم أضافوا إلى ذلك ما أرادوه من الجديد الطريف ... فهؤلاء الرواد الأوائل. وجدوا بنونة أوجد لهم رأس معبر ونقطة انطلاق: ... فلما ورد الطلبة وقرروا الاستقرار بالمغرب من أجل الكفاح والنضال، لم يجدوا الأبواب مغلقة"[٧١].

هذا الجيل الذي أشرفت النخبة المثقفة على تكوينه وتأطيره هو الذي قاد الحركة الوطنية السياسية التي انطلقت قوية ومنظمة منذ ثلاثينيات القرن العشرين، بقيادة عبد الخالق الطريس الذي بدأ عمله الوطني تحت غطاء ثقافي من خلال جمعية الطالب المغربية التي تم تأسيسها سنة ١٩٣٢م، ونظمت عشرات الأنشطة الثقافية وأحيت العديد من المناسبات الدينية وساهمت بشكل كبير في نشر الوعي بين عموم الساكنة وتثقيفهم.

كما وظف هؤلاء الشباب العمل الصحفي من خلال جريدة الحياة التي أسسها عبد الخالق الطريس سنة ١٩٣٤م لنشر فكرة الوطنية الصحيحة، وتوجيه الرأي العام المغربي وتغذية العقول بالأفكار المتنورة، هذا إلى جانب عملهم التربوي من خلال المدرسة الأهلية والمعهد الحر الذي تم تأسسه سنة ١٩٣٥م، وتخرج منه شريحة عريضة من الشباب، الذين ساهموا بشكل كبير في تعزيز صفوف الحركة الوطنية بشمال المغرب وخاصة بعد تأسيس حزب الإصلاح الوطنية سنة ١٩٣٦م.

الإحالات المرجعية:

(١) داود، محمد **بدايات الفكر الوطني بالمغرب**، سلسلة شراع، عدد ٧٣ يوليوز ٢٠٠٠، ص.٢٢.

(٢) الوزاني التهامي، **مذكرات عن مؤسسي الوطنية بالمغرب**، مخطوط بالخزانة العامة والمحفوظات، تطوان، ص. ١.

(٣) ازحيمي، عاهد، **تصور النخبة المثقفة بمنطقة الحماية الإسبانية لمشروع النهضة الوطنية (١٩١٣-١٩٣٦)**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ٢٠٢٠، ص. ٤٤.

(٤) سبيلا، محمد، **المغرب في مواجهة الحداثة**، منشورات الزمن، الكتاب الرابع، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥، ص. ٢٨-٢٩

(٥) مشبال، عثمان، **"التهامي الوزاني والشعور الوطني في شمال المغرب"**، ضمن أعمال ندوة: التهامي الوزاني: الكتابة- التصوف- التاريخ، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط ١٩٨٩، ص. ٢٣- ٢٤.

(٦) بناني، عثمان، **'الخطابي محمد"**، معلمة المغرب، ج. ١١، مطابع سلا، ٢٠٠٠، ص. ٣٧٦٧.

(٧) ابن الصديق الغماري، أحمد، **التصور والتصديق بأخبار الشيخ سيدي محمد بن الصديق**، مطبعة السعادة، محافظة مصر، ١٣٦٦هـ، ص. ٦٦.

(٨) داود، محمد، **تاريخ تطوان**، ج.١، معهد مولاي الحسن، تطوان، ١٩٥٩، ص. ٣٠١.

(٩) داود، محمد، **تاريخ تطوان**، ج. ١١، تخريج ومراجعة، داود، حسناء، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ٢٠٠٩. ص. ٣٠١.

(١٠) بوخبزة، محمد، **"علي أو علال الخطيب"**، معلمة المغرب، ج. ١١، من إنتاج الجمعية المغربي للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، ٢٠٠٠، ص. ٣٧٧٦- ٣٧٧٧.

(١١) المنوني، محمد، **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، ج. ٢، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، شركة النشر والتوزيع المدارس، مطبعة المتوسط بيروت لبنان، ١٩٨٥، ٣٠٧- ٣٠٨.

(١٢) داود، حسناء، **على رأس الثمانين**، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ٢٠١١. ص. ١٠٩.

(١٣) داود، محمد، **على رأس الأربعين**، تقديم وتعليق حسناء داود، مطبعة الشويخ، ٢٠٠١، ص. ١٣٩.

(١٤) عزيمان، محمد، **"البدايات الأولى للحركة الثقافية ودور الأستاذ الطريس فيها"**، منشورات مؤسسة عبد الخالق الطريس للثقافة والفكر، دار الطباعة الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩، ص. ٣٣- ٣٤- ٣٥.

(١٥) نفسه.

(١٦) السعود، عبد العزيز، **"مسألة التربية والتعليم عند الحركة الوطنية في الشمال"، ضمن ندوة: محمد داود الحركة الوطنية في الشمال والمسألة الثقافية"**، اتحاد كتاب العرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٠. ص. ٢٩.

(١٧) عزيمان، محمد، **"البدايات..."**، م. س، ص. ٣٥.

(١٨) ازحيمي، عاهد، **تصور النخبة المثقفة بمنطقة الحماية ....، م.س**،ص. ٦٣.

(١٩) عزيمان، محمد، **"البدايات..."**، م. س، ص. ٣٤.

(٢٠) رسالة من الحاج عبد السلام بنونة لولده الطيب بتاريخ ٢٢ شتنبر ١٩٣٠، أنظر: ابن عزوز حكيم، محمد، **أب الحركة الوطنية المغربية الحاج عبد السلام بنونة حياته ونضاله**، ج.١، مطبعة الهلال العربية للطباعة والنشر، الرباط، ١٩٨٧، ص.٩٩

(٢١) **"تحديد التمدن"**، جريدة الإصلاح، عدد ٢٠٥، ٢٠ دجنبر ١٩٢٦، صفحة بدون رقم.

(٢٢) عينية، عبد المجيد، **"موقف المغاربة من قضايا التربية والتعليم في العقود الأولى من عقد الحماية الفرنسية / الاسبانية"**، مجلة فضاءات تربوية، عدد ٢، مارس ١٩٩٦، ص. ١٦٨.

(٢٣) معروف الدفالي، محمد، **أصول الحركة الوطنية بين السلفية المجددة والسلفية الجديدة**، منشورات مجلة أمل، الرباط، ٢٠١٤، ص. ١٢٨.

(٢٤) مجموعة من المؤلفين، **شمال المغرب إبان فترة الحماية وبداية عهد الاستقلال**، تنسيق المعطي منجب، منشورات المعهد الملكي للبحث العلمي في تاريخ المغرب، مطبعة المعارف الجديد، الرباط، ٢٠١٤. ص. ٢٢١.

(٢٥) عزيمان، محمد، **"البدايات..."**، م. س، ص. ٣١.

(٢٦) مجموعة من المؤلفين، **شمال المغرب م.س**، ص. ٢٢١

(٢٧) الناصر، سعاد، **"الحركة الثقافية بتطوان الحركة الثقافية في تطوان «سيدي مصطفى أفيلال نموذجا»"**، ضمن أعمال ندوة: تطوان قبل الحماية (١٨٦٠- ١٩١٢)، التي نظمتها مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، مطبعة المهدية، تطوان، ١٩٩٤.، ص. ١٩٩.

(٢٨) باحو، مصطفى، **علماء المغرب ومقاومتهم للبدع والتصوف والقبورية والمواسم**، منشورات جريدة السبيل، ط.٢، ٢٠٠٧، ص. ١٠٦.

(٢٩) محمد بن محمد الزواقي، **"المنجمون والدجالون أو علماء الغيب"**، جريدة الإصلاح، عدد ٣١١.

(٣٠) جابر المغربي، **"نظرة في الإصلاح"**، جريدة الإصلاح، ٢١٦، ١٤ فبراير ١٩٢٧، صفحة بدون رقم.

(٣١) الناصر، سعاد، **"الحركة الثقافية ...."**، م،س ص. ١٩٩.

(٣٢) ابن عزوز حكيم، محمد، **أب الحركة الوطنية ...**، ج.١، م.س، ص. ١٤٣.

(٣٣) فتى المغرب (محمد داود)، **"نحن والعالم الإسلامي (اعملوا لنشر العلم أيها المغاربيون)"**، جريدة الإصلاح، عدد ٢٠٩، ١٧ يناير ١٩٢٧.

(٣٤) المغربي سعيد، "**إليكم سادتي الآباء**" جريدة الإصلاح، عدد ٢١٦، ١٤ فبراير ١٩٢٧، صفحة بدون رقم.

(٣٥) المغربي، سعيد، "**إليكم سادتي معاشر العلماء**"، جريدة الإصلاح، عدد ٢١٢، ١١ فبراير ١٩١٧، صفحة بدون رقم.

(٣٦) تطواني، "**حول الشبيبة والنهضة الأدبية**"، جريدة الإصلاح، عدد ٢٥٦، ٢٩ فبراير ١٩٢٨، صفحة بدون رقم.

(٣٧) نفسه.

(٣٨) عزيمان، محمد، **البدايات...**"، م.س، ص.٣٣.

(٣٩) الرهوني، أحمد، **الرحلة المكية**، م نشر معهد فرانكو لأبحاث العربية الاسبانية، تطوان، ١٩٤١، ص. ٢٧- ٢٨.

(٤٠) يحي ابن المغرب، **شباب الوم؟**"، م.س، صفحة بدون رقم.

(٤١) ابن عزوز حكيم، محمد، **أب الحركة الوطنية...**، م.س، ج ١، ص.٩٩

(٤٢) المساري، محمد العربي، **المغرب بأصوات متعددة**، سلسلة شراع، ع. ٢، ط. ٢ ماي ١٩٩٧.ص. ١٤٩.

(٤٣) داود، محمد، **تاريخ تطوان**، م.س، ج. ١١، ٣. ٣.

(٤٤) ابن عزوز حكيم، محمد، **أب الحركة الوطنية ...**، م.س، ج. ١، ص. ١٥٥.

(٤٥) الخراز، عبد القادر، **تطوان وريادة الصحافة مجلة الإصلاح**، مجلة دار النيابة، ع. ١٣، ١٩٨٧، ص. ٢٨.

(٤٦) لمزيد من التفاصيل، أنظر: ازحيمي عاهد، **تصور النخبة المثقفة لمشروع النهضة الوطنية ..."**، م.س، ص. ١٨٨- ٢٠٣.

(٤٧) الرايس، محمد، **شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الطريم الخطابي**، منشورات تيفراز، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠١١، ص. ٢٨.

(٤٨) الطيبي، عبد الرحمان؛ الإدريسي، الحسين، **التربية والتعليم في برنامج محمد بن عبد الكريم الخطابي**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠١٤، صص. ٢٥٩-٢٦٤.

(٤٩) نفسه، ص. ٩.

(٥٠) الخطيب، إسماعيل، **محمد العربي الخطيب رائد الصحافة بالمغرب**، منشورات جمعية "البعث الإسلامي"، تطوان، ١٩٩٤، ص. ١٠٥.

(٥١) داود، حسناء، **"الأستاذ محمد داود في ميدان التعليم "**، ضمن كتاب: محمد داود والحركة الوطنية في الشمال والمسألة الثقافية، مطبعة دار المعارف الجديدة الرباط، ١٩٩٠، ص. ٥٨.

(٥٢) داود، حسناء، "**الأستاذ محمد داود ..."**، م.س، ص. ٥٧.

(٥٣) ابن عزوز حكيم، محمد، **أب الحركة الوطنية ...**، م.س، ج. ١، ص. ١٨٧.

(٥٤) الصفار حسن، **"الفقيه محمد داود الحركة الوطنية في الشمال والمسألة الثقافية"**، ندوة: محمد داود الحركة الوطنية في الشمال والمسألة الثقافية، اتحاد كتاب العرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٠. ص. ١٢.

(٥٥) السعود، عبد العزيز، "**مسألة التربية والتعليم عند الحركة الوطنية في الشمال**"، ضمن ندوة: **محمد داود الحركة الوطنية في الشمال والمسألة الثقافية**، اتحاد كتاب العرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٠، ص. ٣٠.

(56) BENJELLOUN, Abdelmajid, **pages d'histoire du Maroc: Le patriotisme Marocain face Au Protectorat Espagnol,** Imprimerie El Maarif Al Jadida, Rabat, 1993 pp. 258-259.

(57) BENJELLOUN, Abdelmajid, **Approches du colonialisme Espagnol et du mouvement nationaliste Marocain Dans l'ex-Maroc Khalifien**, OKDA, Rabat, 1988, p. 94.

(٥٨) يقصد شرح الأجرومية لخالد الأزهري

(٥٩) تأسيس هذا النادي بتاريخ ٨ شتنبر ١٩٢٥، لكي **"يجتمع فيه التلاميذ في أوقات فراغهم يطالعوا ما هم في حاجة إلى مطالعته ليعرفوا ما يدور حولهم من الأحداث العالمية: وكان النادي مكتبة ثقافية"**، لمزيد من التفاصيل حول هذا النادي أنظر: ازحيمي، عاهد، **تصور النخبة المثقفة ...**، م.س، ص. ٢٦٢-٢٦٤.

(٦٠) الوزاني، التهامي، **مذكرات ...**، م. س، ص. ٣.

(٦١) الصفار، حسن، **حزب الإصلاح الوطني ١٩٣٦-١٩٥٦ دراسة تحليلية**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة الرسالة الرباط، ٢٠٠٦. ص.١٦

(٦٢) عزيمان، محمد، **"البدايات الأولى ..."**، م.س،ص. ٤٢.

(٦٣) "**الحديث الذي ألقاه الطيب بنونة بمكتبة عبد الخالق الطريس حول مرحلة ما بين سنتي ١٩٢٥ و١٩٣٥، بتاريخ ٢أبريل ١٩٧٩ "، أنظر:** وثائق أبو بكر بنونة، **ملف من أعلام تطوان الأستاذ الطيب بنونة**، ج. ٢، م.س، ص. ٣٣٥.

(٦٤) داود، محمد **بدايات الفكر ...**، م. س، ص. ٣٣.

(٦٥) ابن عزوز حكيم، محمد، **أب الحركة...**، ج. ١، م.س.صص.١٩٦-١٩٧

(٦٦) بنونة، الطيب، **نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين الأمير شكيب أرسلان والحاج عبد السلام بنونة**، طنجة، مطبعة دار الأمل، ١٩٨٠. ص.٢١٦.

(٦٧) الصفار، حسن، **حزب الإصلاح الوطني ...**، م.س، ص. ١٨.

(٦٨) داود، حسناء، **على رأس الثمانين**، م.س، ص. ١٠٢.

(٦٩) الصفار، حسن، **حزب الإصلاح...**، م.س، ص. ١٨.

(٧٠) ابن عزوز حكيم، محمد، **أب الحركة...**، ج. ١، م.س. صص. ٢٢١-٢٢٢.

(٧١) الوزاني، التهامي، **مذكرات...**، م.س، ص. ٣٤.